أين العروبة المصرية من مصر العربية

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

نعم سوف أظل عربيًا .

ورغم أن هذه العبارة راحت تتكرر على لسانى منذ أكثر من سبعة أعوام وقد جعلت منها عنوانًا لعقيدتى ورمزًا لفلسفتى وتلخيصًا لقناعتى لكل ما له صلة بتطورات مستقبلية أو تعاملات فكرية تنبع أو تدور حول هذه المنطقة التى هى وعاء الوطن العربى، إلا أننى لا أزال أرددها فى يقظتى ومنامى بنفس القوة والعنف التى قد أطلق بها صيحة الأمل لأول مرة .

الأيام تزيد من ثقتى فى الذات العربية ، والأحداث تدعم من الولاء ، وتجعل من كل ما يرتبط بالقناعة دينًا وعقيدة .

رغم ذلك فلنترك العاطفة ولندع الانفعالات . تعالوا معى نتحدث مرة أخرى بلغة العلم الصماء . فلنهرع إلى منطق الوجود الإنسانى ، بوضعيته المطلقة نستنبط منه دلالة الأحداث ونستقرىء من خبراته حقيقة التطور الذى تعيشه منطقتنا العربية .

منذ عشرة أعوام ، وعلى وجه التحديد منذ بداية الحرب الأهلية فى « لبنان » والأحداث تتوالى أمام أعيننا بسرعة مذهلة ، ولكنها جميعها تنبع من هدف واحد ، وتسعى نحو غاية واحدة : تكريس التفرقة وإبعاد « مصر » عن الصف العربى ، تضافرت الجهود واتحدت الأهداف ، ورغم أن كل محلل على قسط من العلم بخفايا السياسة الدولية ، كان يجب أن يتنبأ بذلك ومنذ اتفاقية فك الاشتباك الثانى ، إلا أننا لا نزال حتى هذه اللحظة ومنا الكثيرون الذين لا يزالون يأبون إلا أن يضعوا رؤوسهم فى الرمال ، فى مؤلفنا عن « **الحرب النفسية فى المنطقة العربية** » الذى كُتِب من قرابة خمسة

(*) مجلة " L Avant Grade Arabe " الطليعة العربية، فرنسا العدد 104 ، فى 6 آيار- يونيو - 1985 ، ص 26 وما بعدها .

obeikandl.com

عشر عامًا أعلناها بصراحة ووضوح ، وذهبنا نبحث عن مستمع ، أو نتلمس استجابة ولكن دون جدوى ، **فماذا يتعين علينا ونحن نرى اليوم جرائم القتل ترتكب أمام أعيننا مع سبق الإصرار فى أرض لبنان الحبيبة ، بل ويساهم ويشارك فى ارتكابها زعماء وقادة محسوبون على القومية العربية ؟**

أ – القومية العربية والعروبة السياسية لا تزال تبحث عن اكتمال أيديولوجيتها المتكاملة ونظريتها السياسية التى تسمح ببناء إطار واضح لحركتها فى النطاقين الإقليمى والدولى . ولنحدد منذ البداية مجموعة العناصر التى تعكس حالة التخلخل بل والتهلهل الفكرى الذى يعيشه الواقع العربى والذى يتعين عليه أن يتخطاه لو أراد له أن يصارع خصومه من منطلق الإدراك الواعى فى الأعوام القادمة .

أولاً : أول ما نلاحظه أن المنطقة تعيش عملية تسميم خطيرة متعددة الأبعاد . لو تركنا جانبًا السلوك الدولى فى المنطقة العربية واقتصرنا على تحليل عناصر المدركات السياسية ، ودلالة تلك المدركات كمؤشر حول طبيعة التصور ، لكان علينا أن نقف إزاء ثلاثة مفاهيم أطلقت وأكد عليها خلال هذه الفترة التى حددناها بالعشر [1] أعوام الماضية والتى لا نزال نعيش أحداثها . **لو تتبعنا المنطق العام للإدراك السياسى ، وبصفة خاصة من حيث علاقته بموضوع تأملاتنا ، للاحظنا أن البداية كانت مع موضوع عروبة « مصر » ، ثم أعقب ذلك مفهوم الأقليات والفتنة الطائفية ، وبين الأول والثانى برز متلصصًا فى أول الأمر خافتًا ليتأكد عقب ذلك ولتتبناه قيادات عربية مسؤولة باسم جامعة الدول الإسلامية ، علينا أن نسرع منذ البداية لنلاحظ كيف أن هذه المفاهيم ليست خاطئة فى ذاتها ، ولكن استخدامها فى غير موضعها هو أحد أساليب الدعاية الحديثة وهو الذى يعنينا والذى يجب علينا أن نفضحه بقوة ودون أى مهادنة .**

ثانيًا : يساعد على تعميق التسميم السياسى للمنطقة وللإدراك القيادى بالوطن العربى عدم قدرة الفكر السياسى العربى على أدائه لوظيفته ، لقد اقتصر على نقل المفاهيم الغربية التى عرفتها المجتمعات الأوربية ، خلال القرن الثامن عشر ووجد فيها ضالته ، ومن ثم ترتب على ذلك ترسيب مفاهيم فى ذاتها قد تكون صحيحة فى تعبيرها عن الواقع الاجتماعى والسياسى الأوربى ، ولكنها تصير خاطئة عندما تطبق على الواقع العربى ، سبق أن رأينا بهذه الخصوص ثلاث مفاهيم ، كان لها أكبر الأثر فى تشويه إدراكنا السياسى : مفهوم الدولة العلمانية ، مفهوم الأقليات القومية ، ثم النظرة العنصرية للمفهوم القومى .

---

(1) يقصد الدكتور حامد بالأعوام العشرة الفترة من 1974 وحتى 1984 .

ثالثًا : الفكر السياسى العربى ، نقل مفاهيم خاطئة من حيث صلاحيتها للواقع العربى، كذلك هو لم يلمس خصائص الحركة العربية فى إطارها الواقعى خلال الربع الثالث من القرن العشرين ، وبصفة خاصة لم يدرك طبيعتها المتميزة سواء من حيث أصولها التاريخية أو من حيث واقعها السياسى ، ومن ثم فهو فى معظمه لم يلمس طبيعتها كمشروع تنموى من جانب ، وبعدها الدولى من جانب آخر ، وهو كذلك لم يستطع أن يرتفع لتأصيل مفهومها للأمن القومى من جانب ثالث .

رابعًا : على أن أخطر ما يمكن أن يعاب على الفكر السياسى العربى التقليدى أنه لم يطرق من أوسع أبوابه المشكلة الأساسية التى يجب أن يدور حولها البناء الفكرى والتنظيمى لأى أيديولوجية سياسية ، وهى أدوات الانتقال من ذلك الواقع الذى نحكم عليه بالرفض والتعفن وعدم الملاءمة ، إلى ذلك النموذج المثالى الذى نسعى إلى تحقيقه ونقله من حيز التصور إلى حيز الممارسة الفعلية . إن أى أيديولوجية يجب أن تجيب بوضوح وبدقة على سؤالين : ما هى خصائص ذلك النموذج الذى يجب أن تسعى إلى تحقيقه الحركة ؟ ثم ما هى الأدوات العملية ، وقد أدخل فى الاعتبار نسبية المكان والزمان، التى لا بد وأن تسمح بتحقيق ذلك النموذج ليصير واقعًا حيًا ؟ فلسفة القومية العربية لم تستطع أن تقدم إجابة على هذين السؤالين حتى اليوم ، سوى بعض الشعارات دون أن تطرق التساؤلات بصراحة ووضوح .

موضع «مصر » من العروبة ومن القومية العربية ؛ يبرز على جميع هذه المستويات ليمثل أحد الخيوط الثابتة التى تربط جميع عناصر النقص فى الإدراك السياسى وفى التعامل مع المشاكل المختلفة التى كان لا بد وأن يثيرها التطور الوحدوى فى الأعوام العشرة الماضية .

ب - أين مصر من العروبة ؟ وما هى علاقة مصر بالعروبة ؟

هذا هو السؤال الذى يجب أن نبدأ من منطلقاته ، لنحدد وظيفة مصر فى تحقيق الدولة القومية بوصفها الدولة القائد وما يعنيه ذلك من حقوق وما يفرضه من التزامات .

فلنحدد كنقطة بداية الإطار الفكرى لهذا المفهوم : « عروبة مصر » .

ولندع - أيضًا - بهذا الخصوص لغة الزعماء ، لقد عودنا معظم هؤلاء أن يعيشوا فى أوهام ، وأن ينطلقوا من أحلام اليقظة ، وأن يسلكوا فى تصرفاتهم منطق الذين لا خبرة لهم ولا دراية ، والنماذج حولنا كثيرة ، أليس أحد صور ومظاهر هذا المنطق ما يكرر البعض اليوم باسم « الأرض مقابل السلام »؟ كيف يمكن أن يكون هناك سلام دون أرض ؟ متى حدث ذلك فى التاريخ ؟ ولتتصور معى أنك تعرض على رجل عادى أن يغادر منزله

وتقوله له : « الطمأنينة دون منزلك » ؟ نعم سوف تكون مطمئنًا وأن تبيت وتعيش فى الطريق العام ، هكذا يتصور هؤلاء الزعماء قضايا القومية والمصير القومى !

لنتحدث لغة الواقع والتاريخ ، ولنترك هؤلاء الزعماء حتى تذيبهم الأحداث ، ولنبدأ فنطرح مجموعة من التساؤلات :

لماذا أنشئت إسرائيل ؟ ألم تكن لمنع « مصر » من أداء وظيفتها العربية ؟ ألم تك لمنع يد القاهرة من أن تصافح اليد الممدودة من « دمشق » لتساند القلب النابض فى « مكة » وقد أحاطت الكل بسياجها التاريخى بغداد ؟ إنها عواصم الجسد الخلاق التى كان يجب أن تساند العاصمة الكبرى وقد تمزقت وتبعثرت كل فى طريق ، وهل لو كانت مصر قد أدركت ، بوعى حقيقى ، وظيفتها العربية خلال الأعوام العشرين السابقة على الحرب العالمية الثانية - هل كانت قد أنشئت «إسرائيل » ، أو قدر لها الوجود ؟ إن إحدى مسؤوليات الفكر السياسى المصرى والقيادات المصرية التى نبتت فى تلك الأرض خلال النصف الأول من القرن العشرين هى أنها لم تفهم وظيفة « مصر » القيادية والحضارية ، فجاءت الصفعة التى سمحت بإنشاء الدولة اليهودية ، والفكر المصرى فى المرحلة المشار إليها لم يفهم وظيفة مصر التاريخية لأنه تشبث بالفكر القومى الأوربى التقليدى الذى يعود إلى القرن الثامن عشر والذى لم يكن له موضع فى أرضنا العربية .

ولنطرحها منذ البداية : العرب بدون « مصر » ليسوا العرب ، «ومصر» بدون العرب ليست « مصر » التعريب هو نصف قومية العرب ، والتمصير هو نصفها الآخر .

هذه الكلمات التى أطلقها كاتب لبنانى ليست إلا تلخيصًا واضحًا لحقيقة العلاقة بين «مصر» والعروبة ، وعلى كل حاكم أن يفهم معناها ودلالتها ، والغريب أن القيادات الأمريكية التى نحج إليها بمناسبة ودون مناسبة قد فهمت ذلك جيدًا ، ووضعت مخططها للتعامل مع المنطقة على أساسه منذ ما لا يقل عن ثلاثين عامًا ، وعلى وجه التحديد منذ حرب عام 1956 وما أعقبها من دروس تعلمتها القيادة الأمريكية عقب أن دفعت ثمنًا غاليًا .

كيف ولماذا ؟

مهلا يا بنى

لا تتعجل فسوف تسمع ، وسوف أدعوك للتأمل ، وسوف أقدم لك سجل الأحداث، وسوف أطرح الوقائع وأدعها تتحدث ، وعليك أنت أن ترتب وتستخلص النتائج .

جـ - عقب حرب السويس فى عام 1956 دعا الرئيس أيزنهاور أحد خبرائه فى سرية تامة ليدرس له وظيفة مصر الدولية ، فقدم له تقريرًا نشر فى العام التالى ، وتستطيع أن تبحث عنه عبثًا فى أى مكتبة عربية فلن تجد له موضعًا ، هذا التقرير الذى وصفه المؤرخ الأمريكى «لينجل Lengyel» والأستاذ فى ذلك الوقت بجامعة « نيويورك » بعنوان « الدور المصرى فى الشؤون الدولية » نستطيع تلخصيه فى عدة أسطر . إن مستقبل الأوضاع المرتبطة بالصراع الدولى تتوقف على مصر وبصفة خاصة فى الأبعاد التالية :

أولاً : لن تستطيع الأمة العربية أن تحقق وحدتها الاندماجية وتتحول إلى دولة واحدة تمتد من الخليج العربى إلى المحيط الأطلسى إلا من خلال التسليم لمصر بالقيادة الحركية والحضارية . إن الذى سوف يحقق تلك الوحدة لو قدر لها أن تتحقق لن يكون البترول العربى ولا الأرصدة المتراكمة فى خزائن الدول الصحراوية ولكن هذه الوحدة سوف تتم لو قدر لمسالك الهجرة المصرية ولأدوات الإعلام والتعلم المصرى أن تخلق الترابط وتدعم التجانس .

ثانيًا : كذلك ، فإن العالم الغربى يعلم أنه لن يستطيع أن يظل متحكمًا فى المنطقة العربية من خلال ربيبته « إسرائيل » إلا إذا حيّد « مصر » فى التعامل مع الدولة العبرية. لن يقضى على « إسرائيل » أو يعيدها إلى حجمها الطبيعى ويجعلها مجتمع للجيتو فى منطقة الشرق الأوسط إلا الفيضان الحضارى المصرى . قد توصف فلسطين بأنها ليست مشكلة الشرق الأوسط ، وقد تتحدث القيادات السورية عن القدرة العسكرية التى تملكها ، بل وقد يقول العبض : إن « مصر » لم تكن عاصمة للامبراطورية العربية، ومن ثم لم تشعر بما يعنيه ذلك من مسؤولية ، ولكن فلنترك جانبًا جميع ذلك ولنتذكر فقط أن الجيش المصرى والقدرة القتالية المصرية ، هى القادرة على أن تتصدى للجيش الإسرائيلى ، حيث الكيْف يواجهه الكم ، وحيث الصلابة والخبرة والتقاليد تصير عناصر ثابتة فى التعامل العسكرى . إن « ابن غوريون » عندما كتب فى وصيته لأبنائه وأتباعه الذين يحكمون إسرائيل : « احذروا من «مصر» عندما تصير ذات الثمانين مليونًا » لم يكن إلا تعبير عن وعى رجل الدولة بنظرة ثاقبة وهو يسطر آخر كلماته .

ثالثًا : كذلك فإن العالم الأوربى يعلم جيدًا أنه لن يستطيع أن يظل فى ممارسة عملياته المختلفة من سلب ثروات العالم الأفريقى إلا إذا حيّد العلاقة بين « مصر » والمجتمع الأسود، فلنترك أيضًا بهذا الخصوص جانبًا الحديث المتكرر عن أهداف الرئيس « القذافى » ومخططات الجزائر ، فهى قشور لا تستحق أى اهتمام .

إن فهم مختلف هذه الحقائق وكيف سقطت الإرادات العربية من جانب ، والدبلوماسية المصرية من جانب آخر ، فى الخطة التى أعدت بإحكام فإذا بمجموعة الأخطار التى تحيط بنا والتى تعكس مدى عدم القدرة على فهم حقيقة الإطار الدولى ، وتعاملاته الخفية مع التطورات السياسية المحتلة للوطن العربى ، هو أحد الأهداف الأساسية التى يجب أن نسعى لإبرازها ونحن نكتشف جوهر القومية العربية ، وبصفة خاصة فى أبعادها الدولية ، وما يعنيه ذلك من بناء خطة حركية تتفق مع حقيقة الإطار الدولى الذى يجب أن تكتمل من خلال التعامل معه .

د – لماذا يثار منذ عدة أعوام ما يسمى بعروبة « مصر» ؟ وكيف نسمح بالتشكيك فى حقيقة العلاقة بين منطقة وادى النيل والوطن العربى ؟ ومتى أثيرت مشكلة عروبة «مصر » كمشكلة فكرية ؟ من العودة إلى المصادر لا نجد أى نص يثير أو يشكك فى أن « مصر » جزء من المجتمع العربى الإسلامى ، حتى نهاية القرن التاسع عشر أو على الأقل حتى فشل الثورة العربية ، فكيف حدث عقب ذلك أن سمعنا الحديث عن مصر الفرعونية ومصر المستقلة عن العروبة ؟

عندما سُئل «إبراهيم باشا » من جانب القنصل البريطانى : أين ستقف فى فتوحاتك؟ أجاب القائد المصرى : حيث أجد من ينطق بالعربية ، سوف أظل أسير بجيشى وعندما قيل له : ألست تركيًا ؟ أجاب الوالى : « لقد أتيت إلى مصر طفلاً وأحرقتنى « مصر » بشمسها فأضحيت عربيًا » .

وفى خطاب من «نابليون » إلى صديقه الجنرال « جورجود » أثناء وجوده فى جزيرة «سانت هيلانه » يقول : ما فتئت الدولة العثمانية منذ اضمحلت أحوالها توجه الحملات ضد المماليك التى كانت تنتهى دائمًا بالفشل والهزيمة ، والذى يقرأ بالتفات تام تاريخ الحوادث التى توالت على «مصر » فى المائة عام الأخيرة ، يوقن أنه لو عهدت إلى وال من البلاد لاستقلت الأمة العربية التى تتألف من أمة تخالف غيرها من الأمم ، مخالفة كلية بعقليتها وأوهامها ولغتها وتاريخها ، وشملت مصر وبلاد العرب – أى المشرق العربى – وشطرًا من أفريقيا .

كيف حدث ؟ من ثم أن أثيرت عروبة «مصر » وطرح على العكس من ذلك ما سمى بمصر الفرعونية ، خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر ؟ وكيف ظل هذا الطرح مسيطرًا على الفكر المصرى ، حتى جاء « جمال عبد الناصر » فحطم هذه الأسطورة ليخلق المد القومى ، الذى سرعان ما عاد ليصيبه مرة أخرى انحسار مماثل بدا فى أول

الأمر خافتًا مترددًا مع هزيـمة حرب الأيام الستة ، ليصير سياسة كـاملة مع اتفاقية « كامب ديفيد » ومـا ارتبط بها ، وأعد لها ، وأعـقبها من مـواقف وتطورات ، لا نزال نعيش فى أمواجها ؟

أسئلة عديدة يجب أن نطرحها بصراحة ووضوح ..

والحديث ذو شجون .

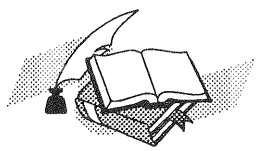

obeikandl.com